(آل عمران ٤٥) . . فلو أن «كلمة الله»، وبالتالي «كلامه» ـ ومنه القرآن ـ وُصف بالقدم لتعدُّد القدماء، ولصحت عقيدة التثليث المسيحية!

وقد ميَّز الأشاعرة بين الكلام النفسي ـ أو الأزلي ـ والذي هو معنى قائم بالنفس، والدلالات التي تدل على هذا الكلام النفسي الأزلي القائم بذات الله سبحانه من جهة، وبين الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء، وما يرتبط بها من حروف وأصوات، ومن جهة أخرى . . فقالوا بقدم الكلام النفسي [المدلول]، وبحدوث الألفاظ والحروف والأصوات [الدلالات] وخلقها، وقالوا إن المنزَّل على محمد، ـ صلى الله عليه وسلم ـ، هو الألفاظ، التي هي دلالات على الكلام الأزلي القائم بالذات. فالمنزَّل مُحْدَث ومخلوق، ولم يحدث من جبريل «نقل لذات الكلام». وهذا يعني أن الدال والمدلول لا ينفصلان في كلام الإله، وأن الانفصال يحدث فقط في حالة تنزيل القرآن.

ويعرض الشهرستاني رأي الأشعري في هذه القضية فيقول: إنه يرى أن «الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ دلالات على الكلام الأزلي، والدلالة مخلوقة محدثة، والمدلول قديم أزلي، والفرق بين القراءة والمقروء، والتلاوة والمتلُوِّ، كالفرق بين الذكر والمذكور، فالذكر مُحْدَث والمذكور قديم».

ويمكننا أن نقول إن جوهر النسق التوحيدي الإسلامي هو مفهوم المسافة، الذي يؤكد علاقة الانفصال والاتصال بين الخالق والمخلوق، فالله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء، فهو غياب إمبريقي كامل، ولا يمكن أن يُدرَك بالحواس، ولكنه، في الوقت نفسه، أقرب إلينا من حبل الوريد، دون أن يلتحم بنا ويجري في دمائنا، ويصبح بذلك جزءاً من عالم الصيرورة. أي أن الحضور الإلهي لا يأخذ شكل تجسد مادي. وإيمان الإنسان به هو عنصر ذاتي، فهو في القلب، ولكنه ليس ذاتياً تماماً، فهو يستند إلى العلامات والقرائن المادية مثل سنن الطبيعة. هذا النمط يتبدى في علاقة الدال بالمدلول في الإطار التوحيدي، فهي علاقة اتصال وانفصال بحيث